ذكريات

الآفاق الأوربية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شبابنا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كى يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيما وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أؤكد أنها لا تقل فى قيمتها الروحية عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن ، كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية . ولكن هذه القنبلة كشفت له نفسه فجاءة . فقال لى واحد منهما : « أشتهى أن أعيش طويلا كى أتعلم وأعرف كثيراً عن تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة » .

وقال الثانى : « إنى أحس كأنى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية » .

وقد ذكرت مثلى هذين الشابين كى أقول إنى فى ١٩٠٨ أحسست مثل هذا الوجدان ، وضاقت نفسى إلى حد الانفجار . فقد وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى « المقتطف » إنى إزاء رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وإن هناك أفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق ، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا فى التاسعة

عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى أنقش فيها المعارف التى اختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام . ولم يكن الإسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفا بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيتى فى يدىَّ وأن أعين برنامجى أو برامجى لا للدرس بل للحياة . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرغ فقط .

فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وفراغ وباريس . وأنا فى التاسعة عشرة . ولكن لا ! فان باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أغرف الحجاب وأرتضى شعاره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفا . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أن طيلة عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به

ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقا جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فانهما لم يمسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكا يغمر كيانى فلا أجد اللعثمة فى لسانى فقط بل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يحب أن تنفرج فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فنًّا كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور . ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس حنسى ووكس عاطفى بحال شباننا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطرًّا إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقيًّا يرثى لى.

وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة « كيه فو دير سا » أى « ما المَعْنى » وذلك لألحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم وتعقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيما لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقن تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للانجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بايجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشؤون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة المقتطف قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها

بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارئ يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها.

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارئ مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك كانت حرية المرأة فى أوربا الغربية . فان هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية. وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة . ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة فى لندن . وامتلأ قلبى وذهنى نوراً وتفاؤلاً بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فاننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار فى السكك والإهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلا عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقة وقذر كأنه الدنس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشيا على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر أنى رأيت ذات مرة فى جولاتى هرماً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فإن فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الاسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكا بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فإنه ليس فى

أوربا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركيا لا تخرج فيه السلطة عن الأب . وليس فى كل أوربا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون . وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس فى فرنسا ، وبعضها ينفرد فى ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلا ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه فى باريس فى ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير فى أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فان كاهن القرية هو الرئيس الروحى الذى يخاطب السكان بلهجة الأمر تحيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس فى أوربا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هى فى باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن فى فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الأطفال يشربون الخمور ، فانى لا أذكر أنى رأيت طيلة إقامتى فى فرنسا فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلا سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسى يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله فى كل ذلك مارب فنى يحمله على أن يتأنق فى معيشته . فهو ينحت السكر عن تأنق وفن كما يجد فى التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية باوانيها ورهورها ، هى متعة فنية كما هى لذة الذوق بمهارة طهاتها .

وبدهى أن لتماسك العائلة الفرنسية نتيجة هى أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه فى كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد فى البيت هى الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادى أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على

طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المربين قد التفتوا إليها ، هى أن الجملة ، دون الكلمة ، هى التى تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات . وقد أتيح لى أن أستمتع برؤية سارة برنار وهى تمثل « النَّسَيْر » ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية .

ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيتيه التى كانت تعبر عن الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع إهتمامى . وأكسبتنى الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى . وكانت جرائدنا فى مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشؤون العالمية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الجرائد تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح والايماض ، لغة الأدب الحر ، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل مشعلة الثقافة التى تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر ، فانى لاتجاهى العلمى وحدتنى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءة الكتب الانجليزية وأوثرها على الفرنسية . لأن الانجليزية تعبر عن نزعة عملية تحقيقية كثيرا ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى . ولذلك أعزو تربيتى الثقافية إلى الانجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسيه .

وإذا سألنى القارئ : هل وجدت فى الانجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس ؟ فانى أجيب بلا . كما أنى أعترف أن هناك غير أناطول فرانس ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الامريكيين . ولكن ميزة الكاتب الانجليزى ، وأسمى كتاب الانجليز عندى هو برنارد شو ، ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة فى الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنى مازلت إلى الآن أوثر الجريدة الفرنسية فى القاهرة على الجريدة الانجليزية ،

ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تفوتنى ، فانى حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوربى التفكير والنزعة . وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم « هلينيون » إذا استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الآتينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافيا للإغريق فقط بل كانت أيضاً وطنا ثقافيـًا لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافيا للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلا عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

سلامه موسى